

لله ربيع، والله بالنبي العربي

عطاء الرحمن الندوي

بل هي بسبب كثرة المعاصي والفواحش وانتشار الذنوب والمنكرات وطغيانها على المثل الأخلاقية والقيم الإنسانية و نذيراً للعالم بما كان فيه من حياة عبودية وثنية وعيش جاهلي وتبدلت الأرض غير الأرض التي كانت قبل الرقي والإزدهار والتكنولوجيا الحديثة ، وإن الأمة التي كانت وحشية وكانت في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلّمت بعضها فوق بعض ، وفي الظلمات الحالكة التي إذا أخرجت يدها لم تكد تراها فمن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، أصبحت أمة ذات رسالة سماوية سامية ، وكانت تتقاطر على النار والهلاك و الدماركتقاطر الجنان والفرش على النار ، فانقذها الله تبارك وتعالى بذلك السراج الذي أثار به العالم كما أشار إليه القرآن الكريم بلسانه الخالد : " كنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها " سورة آل عمران : ١٠٣ وجاء الرسول الأمي في هذا الربيع وفي هذا الشهر المبارك برسالة عالمية باقية إلى آخر يوم الناس في هذه الدنيا ، فيوجد فيها كل ما يحتاج إليه الناس من شريعة عادلة وقانون شامل، وفوق كل ذلك أنزل الله تبارك وتعالى كتابه المبين الذي " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " سورة فصلت: ٤٢. ومن هنالك كانت بعثة النبي العربي

الوحشية ومنعهم عن قتل أولادهم " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم " سورة الأنعام ١٥٢ - وما وقفوا على هذا الحد بل وادوا البنات فراراً من العار حتى خرج القرآن الكريم عن صمته على هذه الأعمال الوحشية والبربرية والشنيعة بقوله الوعيد " وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت ؟ سورة التكويد ٨-٩ .

وفي مثل هذه الأوضاع القاسية القائمة جاء شهر مبارك وهو شهر الربيع الذي هبت فيه نفحة ربانية وإيمانية لإنقاذ الإنسانية من الوثنية الجاهلية وإيصال سفينة البشرية إلى شاطئ النهر التي كانت تغرق في البحر ، ومن ضيق المادية إلى رحاب العزة والطاعة ، فبعث الله النبي العربي وولد النبي الأمي في هذا الربيع وانكشف هذا الظلام الحالك وسطع النور النبي الأمي العربي ، وأشرقت شمس الهداية الربانية والنور المحمدي فاضت العالم ، وأخرجت الدنيا من شقاء ليس بعده شقاء ومن الشقاء الخالد إلى السعادة الدائمة ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام حيث جاء الرسول العربي بشيراً لهذه الأوضاع المكفهرة والفضاء المقتمم والبيئة المكثفة التي لم تكن مبنية على انتشار الغازات السامة والدخان الكثيف فحسب

لقد شاهد تاريخ العالم والتاريخ البشري جواً مكفهرًا وبيئة مكثفة وانتفاضة عالمية لا يوجد لها نظير فيه، حيث كان العالم مملوءاً بالأعمال الشنيعة ، وكانت الإنسانية في ظلام عميق غارقة في الضلالة والجهالة حتى ضاقت عليها الأرض بما رحبت ، وإذا لقينا نظرة خاطفة على تلك الأوضاع التي واجهتها الإنسانية لوجدنا أنها وقفت حائرة عند مفترق الطرق (Cross Way) بما واجهته من أحداث ونكبات ووقائع وأزمات وبما منيت به من أزمات شتى منها : أزمة الأخلاق وأزمة المعتقدات وأزمة العقائد والأفكار حتى بلغت حالة أشرف المخلوقات إلى حد عبادة الأحجار والأصنام ، حيث كان الناس يعبدون ما ينحتون من الأحجار والأصنام ثم يسجدون لها ويقدمون إليها الأطعمة من الأكل والشرب ، وأصبحت الطرق مسدودة وكانت الإنسانية تتيه في ببياء ليس فيها نور ولا سراج ، وإن العداوة قد رسخت في القلوب وتمكنت من وجود الإنسان في كل مجال من مجالات الحياة الفردية والجماعية ، وفي جميع الطبقات العالية والسافلة ، وكانت الحياة جحيماً لا تطاق فضلاً عن وجود ما يسمى بالمواسات والمساوات وبالألفة والمحبة ، حتى بلغت وطاة العداوة وشدتها مبلغاً حيث بان الأب فقد الرحمة لأولاده ذكوراً وإناثاً فكان يقتلهم خشية إملاق ، وقد سجل القرآن الكريم تلك الواقعة الرهيبة

منة الله الكبرى على الناس كافة وعلى العالمين
أجمعين ، وتغيرت أخلاق تلك الأمة الوحشية
بالأخلاق الفاضلة ، وكانت قبل بعثة النبي العربي
على مفترق الطرق تائهة صارت الآن هداة مهدية ،
وكان كل ذلك بفضل النبي الأمي العربي ، وكان
النبي صلي الله عليه وسلم على الخلق العظيم
والصفات العالية كما وصفه القرآن الكريم " وإنك
لعلى خلق عظيم " سورة القم : ٤

وكما وصفه علي ابن أبي طالب رضي الله
عنه الذي رواه الإمام الترمذي في الشمائل النبوية :
لم يكن رسول الله صلي الله عليه وسلم فاحشا
متفحشا ، ولا سخابا في الأسواق ولا يجزى
السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح

فإن هذا الشهر المبارك شهر الرحمة وربيع
الزمان ولو لا النبي العربي لما كان الربيع ، لأنه
ولد فيه الهدى وطلع منه النور ، وبولادة النبي
ظهرت في هذا الشهر العظيم تباشير الصباح
وظلائع السعادة البشرية ، فحل الربيع بتلك
الذكريات العاطرة ، لو لا هذا الربيع لجدبت
الزروع الإنسانية ولأقفرت القلوب البشرية ولما
انفجرت ينابيع الحكمة الإلهية ، وبرزت تلك
الآيات البينة التي تدل دلالة واضحة على صدق
خاتم النبيين الذي جاء عنه في رواية أخرجه
البخاري يقول عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن
عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول
الله صلي الله عليه وسلم في التوراة قال أجل :
والله أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته
في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً
ومبشراً ونذيراً ، سورة الأحزاب : ٤٥

فلا يحل الربيع بنفحاته الطيبة
وأزهاره المفتوحة وطيوره المتفردة
ونغماته المترنمة إلا بذلك النور الذي أرسله
بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه
وسراجاً منيراً ، وبهذا النور الذي أضاء منه
الكون وأثار به الطرق يقول القائل :

لم لا يضيء بك الوجود وليله
فيه صباح من جمالك مسفر
فبشمس حسنك كل يوم مشرق
وببدر وجهك كل ليل مقمر

وبهذه المناسبة قال قائل :
ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء
ويقول شاعر رسول الله صلي الله عليه

وسلم حسان بن ثابت رضي الله عنه :
وأجمل منك لم تر قط عيني
وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبراً من كل عيب

كانك قد خلقت كما تشاء
فإن الحياة البشرية لا تستطيع أن
تتشرف بذلك النور المحمدي وبربيع الزمان
وشهر الرحمة هذا إلا إذا سجلت إسمها في
قائمة الأمة المحمدية وتفتخر بالشرعية
الإسلامية وتستسلم لها طوعاً ولاكرها ، حبا
وكرامة لا جبراً ولا قهراً ، لأن سفينتها لا تصل
إلى شاطئء النجاة قط إلا بتجديفها حيث أن
جميع ما تتمتع به الإنسانية في هذه الحياة
الدينا إنما هي بركة من بركات هذا الربيع ورحمة
من رحمت النبي الأمي صلي الله عليه وسلم كما
أعلن الله تبارك وتعالى رحمة للعالمين فقال :
" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " سورة
الأنبياء : ١٠٧

وإن التحديات والصعوبات التي تعاني
منها الإنسانية عامة والأمة المحمدية
خاصة من مشارق الأرض ومغاربها وجميع
المصائب والشدائد التي نئن منها نحن المسلمون
اليوم شرقاً وغرباً تحت وطئتها إنما هي بسبب
ابتعاد العالم عن هذا الربيع ولأجل تنازل الأمة
المحمدية عن الشرعية الغراء :

" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك
فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً "

(سورة النساء : ٦٥) فكما نقل القرآن الكريم دعوة
النبي العربي لإنقاذ سفينة الحياة البشرية من
الغرق : " إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا
تتبعوا السبل فتنفركم عن سبيله " سورة الأنعام
- ١٥٤ . وعن هذه الأسوة المحمدية التي فتحت
أعيننا عمياً وآذاننا صماً وقلوبنا غلغفا وتركت الأمة
الإسلامية على المحجة البيضاء ليلها كنهارها
حتى لم تترك مجالاً لقائل أنه لا يجد في هذه
الحياة المحمدية نموذجاً ولا أسوة حسنة وقد
بقيت عليه أمور خافية لم تظهر بعد ، ولذلك أعلن
القرآن الكريم مجلجلاً : " لقد كان لكم في رسول
الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله

واليوم الآخر " (سورة الاحزاب : ٢١)
ففيه أسوة حسنة ونماذج رائعة
للإنسانية جمعاء ، ولها فيه أسوة صلجي ،
وأسوة حربياً ، وأسوة في نشر جناح الأمن
والسلام وتمطيط ظلال الأخوة بين الناس
كآفة ، ولأجل ذلك رفع الله تبارك وتعالى ذكره
كما قال : ورفعنا لك ذكرك " (سورة الم
نشرح : ٤)

وإن العالم والإنسانية اليوم لفي أشد
الحاجة إلى هذه الأسوة النبوية ولاختيارها
لإنقاذ سفينة الحياة الإنسانية ، حيث يعلمها
هذا الربيع مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال
وإعطاء كل ذي حق حقه ، ويذكر المسلمين
اليوم بان يعيدوا ثقتهم بالسيرة
المصطفوية العطرة ويطلبوها من جديد
حتى يكون الربيع زبيعا ، فلو لا هذا الربيع ولو
لا هذا السراج ولو لا هذا النبي العربي لما
انفجرت ينابيع الحكمة الربانية
والهداية البشرية ولو لا النبي العربي لما
هبت رياح العقيدة والإيمان ولما انقشعت
سحب الجهالة والضلالة ، فلا قيمة للربيع
إلا بالنبي ، ولا عيد في الربيع إلا باتباع النبي عليه
أفضل الصلاة والتسليم .